الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

١ - أبو الحسن الجرجانى

١ — إن للرجل الذى نتحدّث عنه فى هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفى فى تقدير فضله أن نشير الى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجانى صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"[1] . وسيرى القارئ فى درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزانة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل، حىّ الإحساس، حر الوجدان يلقى الى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزَء بها الآداب العربية لو توفر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه فى تيار الجمود ! وأى خطر كان يحدق بالقضاء لو أصمّ هذا القاضى مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما فى هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاة بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أوّل صفات القاضى فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له فى حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأمانىّ النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ — ولد أبو الحسن على بن عبد العزيز فى مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة. وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

---

(١) هكذا يقول ياقوت فى معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول فى ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبى على الفارسى، وكذلك قال السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدّثين . وكانت لعهد من عُرِفت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة ، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذى لا يستحيل صِبغه ، والذى كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرازير ، والظباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأقيشر اليربوعى — تردّد فى ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانيـــة لم يطف بهـا ... حنيف ولم ينغر بهـا ساعةً قِـدرُ
ولم يشهـــد القَس المهينم نارها ... طروقا ولم يحضر على طبخها حَـبر
أتانى بهـا يحيى وقـــد نمت نومة ... وقد لاحت الشعرى وقد جَنَح النسر
فقلت آصطبحها أو لغيرىَ فآسقها ... فمـا أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها فى العصور التى مضت ... فكيف التصابى بعد ما كلأ[1] العمر
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتى حياءٌ ولا سـتر
فدعه ولا تنفس عليــه الذى أتى ... وإن جرّ أسـباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة[2] .

ونرى أن لوفرة ما كان بجرجان من الفواكه واشهرتها بالخمر تأثيرا فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفى ظلال هـذه المدينـة المفتنّة فى تنسيق المزارع والمصـانع نشأ أبو الحسن الذى برع من تقدّمه من الكاتبين فى أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر ممـا يتلقاه به فى سائر البلاد .

قال : وقد آستعفيته يوما من فرط تحفّيه بى وتواضعه لى فأنشدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده ... وأمدّه من فعلك الحسـنِ

(١) كلأ العمر : انتهى الى آخره وأقصاه .

(٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت فى الأمالى . أنظر ص ٧٥ ج ١ طبع بولاق .

openkandi.com

فالعـــز مطلوب وملتَمسٌ وأعزه ما نِيل فى الوطنِ

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

قال : والأصـل فيه قوله تعـالى : ﴿ يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ . ورغبة الرجل فى أن يكرم فى وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء فى مختلف الأجيال .

قال الثعالبى : "وكان فى صباه خلَف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدويخ بلاد العراق والشـام وغيرها واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلوم عَلَما، وفى الكمال عالمًا . ثم عرَّج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشـتدّ اختصاصه به، وحل منه محلا بعيـدا فى رفعته ... وتقـلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال فى حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله[٢]". وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت[٣] .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجانى فى الفقه والأدب والتاريخ . أما تآليفه فى الفقه فلم يصلنا منه شىء . وقد جاء فى طبقات الشافعية أنه صنف كتابا فى الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما تآليفه فى التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبى بأنه (تاريخ فى بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف فى الانتقادات)[٤] وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبى حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحى هذا الرجل فى دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥
(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين فى الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارَب ولايَن ، وفى أى وقت جاهَر وكاشف — ويبين فى الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهـذا الاتجاه يدل على أن هـذا الرجل كان يستخدم التاريخ فى نشر الدعوة الاسلامية . وآستخدام التاريخ فى الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلا ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم فى كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما آعترت الأمم بما قد يصوِّر به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطرة على التاريخ .

أما تأليفه فى الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه" وسنعود اليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هى عدّتنا فى تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ — كانت نفس القاضى على بن عبـد العزيز الجرجانى نفسا غاليـة : فلقـد ترك لنا فى شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التى حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للمروءة عن مواطن الآبتذال . وسيرى القارئ حين نقدّم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية فى سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فينقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزّت نفس قاضى القضاة وأسرفت فى التصوّن ، إن كان فى التصوّن إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرِّيب والظنون حتى زينت له العـزلة والآنفراد . وشعره فى هـذا المعنى مثـال من

الأمثلة العليا التى يعتز بمحاكاتها كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لى فيك انقباضٌ وانما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمو هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرِما
وما زلت منحازا بعرضى جانبا ... من الذم أعتد الصيانة مغنما
اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل أهل الأرض أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لىَ سُلما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعُظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... مُحيّاه بالأطماع حتى تجهما

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

على مهجتى تجنى الحوادث والدهرُ ... فأما اصطبارى فهو ممتنعٌ وعرُ
كأنى ألاقى كل يوم ينوبنى ... بذنب وما ذنبى سوى أننى حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذى ... أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرَّما ... علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه ... مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر
إذا قدّموا بالخير قدمت دونهم ... بنفس فقير كل أخلاقه وفر

فى هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التى قضى عليها "فضل بالشقوة والحرمان . وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرَض عليه عرضا فيأباها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا فى قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خير من وقوفى بها العسر

وقوله :

وبينى وبين المال بابان حرَّما علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر

ويرحم الله من يعانى ثورة النفس، وقسوة الزمان !

٦ — وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجانى قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يثور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتذر من انقباضه عن أخويه، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجية فطر عليها منذ قضى الله أن يلقى به فى ظلمات هذا الوجود، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهمُ عهدى ودُم لى وإن دام البعاد على الودّ

ولى خُلُقٌ لا أستطيع فراقه يفوّتنى حظى ويمنعنى رشدى

نفور عن الإخوان من غير ريبة يعدّ جفاءً والوفاء لهم وَكدى

غذيت به طفلا فان رمت هجره تأبّى وأغرتنى به ألفة المهد

كما ألفتْ كفاكما البذل والندى فأعياكما أن تمنعا كف مستجدى

على أننى أقضى الحقوق بنيتى وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى

ويخدمهم قلبى وودّى ومنطقى وأبلغ فى رعىِ الذمام لهم جهدى

فإن أنتما لم تقبلا لىَ عذرة وألزمتانى فيه أكثر من وجدى

فقولا لطبعى أن يزول فانه يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ — كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال . وشعره في وصف الملاحة ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله — في الخد المورّد والطرف الكحيل — :

أنثر على خدّيَ من وردك — أو دع فمي يقطفه من خدّك
ارحم قضيب البان وآرفق به — قد خفت أن ينقدّ من قدّك
وقل لعينيك بنفسي هما — يخففان السقم عن عبدك

وقوله — في مغازلة النديم — :

أفدي الذي قال وفي كفه — مثلُ الذي أشرب من فيه
الورد قد أينع في وجنتي — قلت فمي باللثم يجنيه

وقوله — في فتنة الألحاظ — :

من ذا الغزال الفاتن الطرفِ — الكامل البهجة والظرفِ
ما بال عينيه وألحاظه — دائبة تعمل في حتفي
واهًا لذاك الورد في خدّه — لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدي — ما يشتكي قلبيَ من طرفي

وقوله — في آختلاس التقبيل — :

وغنج عينيك وما أودعت — أجفانها قلب شجٍ وامقِ
ما خلق الرحمن تفاحتَيْ — خدّيك إلا لفم العاشق
لكنني أُمنَع منها فما — حظِّيَ إلا خلسة السارق

وقوله — في القسم بجنود الجمال — :

لا وجفون يغضها العذَلُ — عن وجنات تذيبها القُبَلُ
ومهجة للهوى معرضة — تعبث فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان — أخر ميقات يومه الأجل

وهذه القطع التى آخترناها من شعره فى الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله فى هذه المعانى أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعى بأن لا تنشر فى مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنّى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدّث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَن عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحيٍ ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالدنف الهائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفى تصيُّد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول فى تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عينى تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سَقَمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظرىَّ دمك
أعرتَه صِبغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حدّ مِبضعه فآلحظ به العرق وآرتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الحواس، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيم المستهامُ
قل لأحبابه فِداكم فؤاد ليس يسلو ومقلة لا تنام

وكيف يقول فى خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مَضحك الرياض غمامُ
رب عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

فى ليال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحلام
وكأن الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وَصولٌ ومنًى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقياكمو علىّ حرام

وقد أطلق الشاعر خياله فى هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال فى خيال . أليس يذكر أن عيشه الغض كان :

فى ليال كأنهنّ أمانٍ من زمان كأنه أحلامُ

ولكن من ذا الذى ينكر جمال هذا الخيال؟ أو من ذا الذى لا يروقه نوم جفون الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله فى الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعةٌ تلك الليالى كعهدها الى الوصل أم لا يُرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجدّ خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى واستُطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعودها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبىْ بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُداوَى صريعها
بها تسكن النفس النَّفور ويغتدى بآنس من قلب المقيم نزيعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حكمها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلّب النظر فى ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظمأ الى معاهد

تلك الظباء التى تحالفت لحاظها أن لا يداوَى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكَى فى ظلالها قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق فى هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد تلك الظبـاء :

بهـا تسكن النفس النفور و يغتدى ... بآنس من قلب المقـيم نزيعها
يحن اليهـا كل قلب كأنمـا ... تشاد بحبـات القلوب ربوعها (١)

والعجيب فى هـذا الشعر أن تُصـوَّر نفس المحب فى غربتـه ونواه وهى تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق؟ أهذا ممـا يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك . وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظـاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشـوة الاصـطباح بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هـذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان العهـود !

رويدكمُ لا تسبقوا بقطيعـتى ... صروف الليالى إن فى الدهر كافيا
أفى الحق أنى قـد قضيت ديونكم ... وأن ديـونى باقياتٌ كما هيا
فواأسـفى حتـام أرعى مضيِّعا ... وآمن خـوّانا وأذكر ناسـيا
وما زال أحبـابى يسيئون عشرتى ... ويجفـونى حـتى عذرت الأعاديا

---

(١) ما نقلناه من شعر الجرجانى يجده القارئ فى أخباره باليتيمة — ج٢ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ – كتاب الوساطة

١ — «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب فى النقد لأبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى . يقع فى ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا فى سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخراهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ — ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة فى إظهار مساوى المتنبي عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه (١) .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب فى المتنبي فئتين : فئة تطنب فى تقريظه وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل، وفئة تجتهد فى إخفاء فضائله وإظهار معايبه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه، وأنه رأى من البر بالآداب — وهى أرحام لأبنائها — أن يقول كلمة الحق فى الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول فى الحرص على الأواصر الأدبية : « ومامَن حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضه ويمتهن فى إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذى هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عِظم مزيته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البرّ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا، ولا أقبح وسمًا من عقوق من ناسبك الى أكرم آبائك ، وشاركك فى أخمر أنسابك ، وقاسمك فى أزين أوصافك ، ومتّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك الى الفخر (٢) » .

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ يتيمة . (٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بنوّة العلم وأخوّة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول فى ذلك :

"وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج فى بابه الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتنتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت، واسترسالك للحجة اذا قهرت"[1] .

وأخوّة الأدب هذه عُرفتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلىّ ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب[2] ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ — وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفائه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجرير وأبى نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبى فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرّته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجبه الأنس بالاستطراد عند المتقدمين .

(١) الوساطة ص ١٠ (٢) ص ١٧٠ — ١٧٣ (ط) أولى .

ونريد فى هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون فى هذه المراجعة فائدة لمن تعنيهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجانى، أو كاد، بالشك فى سلامة الشعر الجاهلى من الضعف واللحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطة . وكان من النحاة من يعنّى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد فى شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجانى يرى أن الدواوين الجاهلية لا تسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما فى لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومسترذلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظِّنة عنهم . فذهبت الخواطر فى الذّبّ عنهم كل مذهب وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام » (١) .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب فى قول امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب (٢) ... إثما من الله ولا واغل (٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة فى قوله :

لها متنتان خظاتا (٤) كما ... أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل فى قول لبيد :

تراك أمكنة اذا لم أرضها ... أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

---

(١) الوساطة ص ١٢ — ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم اذا اكتسبه كأنه شىء محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل فى الشجر وغولا توارى فيه، ودخل على القوم واغلا، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخظاة : المكتنزة من كل شىء .

وقول الأسدى :

كما نرقعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبا وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

وحذف النون فى قول طرفة :

قد رفع الفخ فماذا تحذرى

ورفع ما يجب نصبه فى قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلَّفُ

وخفض ما يجب رفعه فى قول امرئ القيس :

كأن ثبيرا من عرانين[1] وبله كبير أناس فى بجاد[2] مزمل[3]

وقد أطال الجرجانى فى سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة، وتثبيت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدّة إعظام المتقدّم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لا نحب أن نكتفى بما أشار اليه الجرجانى من تعسف المنافحين عن شعراء الجاهلية ومَن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغنى هذه الاشارة . وانما نذكر ما قالوه فى توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلَّف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" تبعا للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرنين وهو الأنف . وعرانين الوبل : أول المطر . (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .
(٣) مزمل : أى ملتف فى ثوبه . وكان يجب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصىّ

بنصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصى حملا على المعنى.[1] وكذلك قول الآخر:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصينٌ عبيطات السدائف والخمر

برفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه اذا أحلتها الطعنة فقد حلت هى، الى آخر ما يتأول النحاة ! !

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا فى أنهم نصبوا الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثانى وَفقا للمعنى؟ أكان الهذلى والفرزدق يحسبان حساب النحاة فى مثل ذلك التأويل ؟ لا شىء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كَلَفا بنصرة ماسبق إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجانى . أو هو لحن صريح: فاننا نرتاب فى سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولَّدون وأن من الخطأ إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ[2] ... وهذا المذهب فى استقراء أغلاط القدماء خير من التورط فى النفح عنهم بما لا يغنى ولا يفيد . فقد كان الفرّاء يذكر أن من العرب من يقول فى " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا فى تلفتنا يوم الفراق الى جيراننا صور

وأننى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أدنو فانظور[3]

وهذا لحن لا ينبغى أن يتحمل له الصواب . فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله من قبيلة مهجورة تسيغ هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجانى عن تأثير المكان والطبع فى رقة الشعر وجفائه وهو يرى أن للبادية أثرا فى خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة مَعجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع المفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلى والأموى كان يجرى على قواعد من النحو لم تأخذ صبغة نهائية فى التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك فى العصر العباسى، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم، وإنما هى أغلاط بالاضافة إلى اللغة التى حدد قواعدها النحويون .

(٣) أنظر الصاحبى ص ١٢

وعذوبته وسلامتـه من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شـعر عدىّ وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : لملازمة عدىّ الحاضرة و بعده عن جلافة البـدو وخشونة الأعراب[(١)]. وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر فى تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخّل اليشكرى وهو جاهلى صقلته الحضارة ودمّثه الترف فى قصور الملوك، ولننظر كيف يقول فى أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقـد دخلت على الفتا ة الخدر فى اليوم المطيرِ
الكاعب الحسـناء تر فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهـا فتـدافعت مشى القطاة الى الغـدير
ولثمـتها فتنفسـت كتنفس الظـبى الغـرير
فـدنت وقالت يامنخـل ما بجسمك من حرور
ما شف جسمى غير حبـ ـك فاهدئى عنى وسيرى
وأحـبهـا وتحبـنى ويحب ناقتهـا بعـيرى

٧ — وأظرف ماتنبه اليه الجرجانى إشارته إلى أن للطبع وللخلقة أثرا فى رقة الشعر وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :

” وأنت تجـد ذلك فى أهـل عصرك ، وأبنـاء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهـم كز الألفـاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى أنك ربمـا وجدت ألفاظه فى صورته ونغمته وفى جَرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك “[(٢)] .

ولك أيها القـارئ أن تبحث عن ذلك أيضا فى أهـل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعانى أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس ! !

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان أو شعر أبى تمـام وشعر أبى نواس . وقد يكون الفرق بين شـعر الشباب وشـعر الكهول

(١) ص ٢١ (٢) ص ٢١ وساطة .

obeikandi.com

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو فتى بما لم يستطعه وهو كهل . وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدماثة الشعر ورقته : هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجانى أمثلة لذلك اكتفاء بوضوح الفكرة، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الجيرة الغادين من بطن وَجرة غزال كحيل المقلتين ربيبُ
فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى ولكن من تنأين عنه غريب

وقول الآخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلى سلوت فانما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلى غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجانى على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقى وانحط عن البدوى الوحشى. وهو لا يوصى باجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم الألفاظ على رُتَب المعانى فلا يكون الغزل كالفخر، ولا المديح كالوعيد، ولا الهجاء كالاستبطاء، ولا الهزل كالجد، ولا التعريض كالتصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك فى هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا مختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنّيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض به التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس »[1] .

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة .

فأما القـذف والإفحاش فهو سـباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المهذب الذى قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنـة، وألهم الفصـل بين الردئ والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح »[1] .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجانى مسبوقا فى هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف فى هذه الافكار تصرف المـالكين أن عقـله أُشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدّته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر[2] ووصية أبى تمام للبحترى[3] فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجانى فى سياسة النفس وتقويم البيان .

ولكنه سـيرى كذلك أن الجرجانى أنهضُ بحجته ، وأملكُ لرأيه ، وأقـرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه فى هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجانى أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبى ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب فى الديانة، كقوله :

يترشـفن من فمى رشـفات هن فيـه أحلى من التوحيـد

وقـــوله :

وأبهـــر آيات التهـامىّ أنـه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبى نواس فى مثـل قوله فى انتهاب اللذات والشك فى عذاب الاخـــرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتى ونبذت موعظتى وراء جدارى
ورأيت إيثار اللذاذة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظّر آجل ظنى به رجمٌ من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزّبعرى واضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبِكاءٍ مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر"(١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى الرىّ وجرجان : لنعرف الى أى حدّ كانت النزعة الفنية مسيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأحبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وانما الشاعرية روح يتمرد به الشاعر فيهز نفس القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاثم والبغى أو تقبيح الغىّ والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجنّ :

لما نظرت إلىّ عن حدق المها وبسمت عن متفتح النُّوّار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدّى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

(١) الوساطة ص ٥٧ و ٥٨

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة[1] ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جدّه وهزله ، ويروقك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدّث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقه وإحساسه : فان الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتّاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلوّن العالم كل يوم بلون جديد وتفتّن يده الصّناع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون ! ! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تُصوّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئا لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وانجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها وبيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طلبا للمزيد . فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

---

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابن فارس

١ — لم تعين كتب التراجم السنة التى ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذى ولد فيه . وقد نسبه ابن الأنبارى الى المكان الذى مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى[1] . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء[2] : « واختلفوا فى وطنه فقيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجيانا باذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدّثنى والدى محمد بن أحمد وكان من جملة حاضرى مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :

بلاد بها شُدّت علىّ تمائمى ... وأوّل أرض مس جلدى ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرىّ فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ — ذكر السيوطى فى بغية الوعاة[3] أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلىّ بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه[4] " وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالاشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدّث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل فجاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحا وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها ... وحث اليعملات على وجاها[5]

ولا يغررك حظ أخيك فيها ... إذا صفرت يمينك من جَداها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢
(٥) اليعملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما وخل الدار تحزن من بكاها
فانك واجـد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم الصاحب بن عباد و بديع الزمان الهمذانى . أما حاله مع الصاحب فقد ابتدأت بوفاق، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى الصاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفة فى بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة الى الصاحب . وحتى مدح الصاحبُ ابنَ فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف[1] » ثم انحرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ اليه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب «رد الحجر من حيث جاءك» ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة[2] . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت فى معجم الأدباء[3] يعترض أحيانا بابن فارس فيذكر أنه رأى «بعض الجهال يصحف ويقول» . وأما حاله مع بديع الزمان الهمذانى فكانت فيما يظهر غاية فى صفاء الوداد. نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد اليه منه فى ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر تقلب النفس الانسانية التى سُجِّل غدرها فى قصائد الشعراء، وصحائف الأنبياء. ولننظر كيف يقول «نعم أطال الله بقاء الشيخ الامام إنه الحمأ المسنون[4]، و إن ظنت الظنون، والناس ينسبون لآدم ، و إن كان العهد قد تقادم . وارتبكت الأضداد، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفى أخبارها لاتكسع الشول بأغبارها[5]؟ أم السنين الحربية[6] .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢
(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غبر وهو بقية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن فى أخلاف الناقة . المعنى : لا تغزر لبن إبلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدرى من الناتج) كما فى بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

والـــرمح يركز فى الكلى (١) والسيف يغمد فى الطُّلى (٢)
ومبيت حجر فى الفـــلا والحـارثان وكـربلا

أم البيعة الهاشمية وعلىٌّ يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات فى نأنأة الاسـلام ؟ أم على عهد الرسالة و يوم الفتح قيل : اسكتى يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلَف كجلد الأجرب

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بـلاد بهـا كنا وكنا نحبهـا إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغـيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغـبرٌّ قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفســد فيها و يسفك الدماء؟ وما فسد الناس، و إنمـا اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، و إنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح، و يمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذه والعطف عليه فقال :

«ولعمرى لئن كان كرم العهد كتابا يرد، وجوابا يصـدر، إنه لقريب المنال، و إنى على تو بيخه لى لفقير إلى لقائه، شفيق على بقائه، منتست إلى ولائه، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خوّلنيها الله نارا، وعلى كل كلمة علّمنيها منارا . ولو عرفت لكتابى موقعا من قلبـه لاغتنمت خدمته به ولرددت اليه سُؤر كاسه، وفضل أنفاسه . ولكنى خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردّت

(١) الكلى جمع كلية وكلوة بالضم . (٢) الطلى بالضم الأعناق جمع طلية أو طلاوة .

الينا) وله أيده الله العتبى، والمودة فى القربى، والمرباع، وما ناله البـاع . وما ضمه الجلد، وضمنه المشط . وليست رضاى ولكنها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال[1] :

ولو وجدنا نص الكتاب الذى بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه، وألوان قلبه : فان لأزمات القلب، ولجعات النفس، دلالة كبيرة على المناحى التى يجنح اليها الكتاب والشعراء والباحثون[2] .

٥ — كان ابن فارس وسطا فى شعره ونثره : فلم يكن يُسفّ حتى يصل الى وصمة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره فى جملة بيّن واضح مقبول . يعجبنى منه قوله — فى تقريع رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقـرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيـه يؤلف فيلحن . فاذا نبها قالا (ما ندرى ما الاعراب و إنمـا نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه و يراها من فقه الشافعى بالرتبة العليا فى القياس . فقلت له : ماحقيقة القياس ومامعناه؟ من أى شىء هو؟ فقال (ليس علىّ هذا و إنما علىّ إقامة الدليل على صحته) .

«فقل الآن فى رجل يروم إقامه الدليل على صحة شىء لا يعرف معنـاه ولا يدرى ما هو ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل الكاتب الى ما يرمى اليه من التهكم اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعانى

---

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع .

(٢) الذى فى رسائل بديع الزمان أن هذه الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليـه من ابن فارس فى ذم الزمان . وفى نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع الزمان ذكر فى مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفه عنا فالحمد لله على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفى هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همذان الغيث لست بقائل سوى ذا وفى الأحشاء نار تضرم
وما لىَ لا أُصفى الدعاء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذى أحسنته غير أننى مَدين وما فى جوف بيتىَ درهم (١)

وقوله فى كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضّى حاجة وتفوت حاج
ندیمى هرتى وأنيس نفسى دفاتر لى ومعشوق السراج (٢)

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به يسخر الحمق لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفى هذا المعنى يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجهة وأن حظىَ منها فلس إفلاس
قالوا فما لك منها قلت تخدمنى لها ومن أجلها الحمق من الناس (٣)

وقد يستجاد قوله فى التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعهُ وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خُبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه (٣)

ومن ظريف الاشارة الى ضعف حجج النحاة قوله فى فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تنمى لتركى
ترنو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى (٥)

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من اليتيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢
(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذى يعنينا هو (الصاحبى) الذى قدّمه الى الصاحب بن عباد، وهو كتاب متوسط الحجم يقع فى ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية فى سنة ١٩١٠ طبعا جيدا نقلا عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطى من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة فى إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف فى سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطى "وكانت مقابلتى إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التى كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته فى آن واحد ولله الحمد" .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث فى تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدّمين تاريخ آثار هذا اللغوى الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبى فى سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف فى أى سنة من سنى حياته العلمية وضع رسالته فى الرّد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جدا بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو فى "الصاحبى" رجل حِذِرٌ هيوب يحسب مسايرة العقل جريمة ، ويعدّ التفكير من جملة الذنوب . ولكنه فى رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس فى كتاب "الصاحبى" كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحو أحيانا فيرمى بالقول السديد . وحسب القارئ فى الدلالة على إغراق كتاب الصاحبى فى «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول فى وصفه "علم العروض الذى يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل مايتبجح به الناسبون أنفسهم الى التى يقال لها الفلسفة"(٢) .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله فى رينان "ذلك الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" .

---

(١) ص ٤ (٢) ص ٣٧

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التى يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه " الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف " وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون فى العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات فى النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول فى ذلك " وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو"(١)، ثم يقول " وهذا كلام لا يعرج على مثله . وانما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وأدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن " ثم يقول فى وصف العروض " ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التى لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه "(٢) .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين فى العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا فى درس حقائق الأشياء ؟

٩ — نترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التى تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله فى فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد فى عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا كتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٣

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية فى جميع الأجيال .

وفى رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التى شهدها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول فى خطابه الى ابن سعيد " ألهمك الله الرشاد ، وأصحبك السداد ، وجنبك الخلاف ، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائى هـذا لك إنكارك على أبى الحسن محمد بن على العجلى تأليفـه كتابا فى الحماسة و إعظامك ذلك ولعله لو فعـل حتى يصيب الغرض الذى يريده ، و يرد المنهـل الذى يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه ، ومختاره و رخيه ، كثيرا ممـا فات الأُوَل . فمـا ذا الانكار ولم الاعتراض ؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال "ما ترك الأول للآخر شيئا " وتدع قول الآخر "كم ترك الأول للآخر" وهـل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منهـا رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم و وقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، و يجمع مثل جمعه ، و يرى فى كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهـــم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعـد أبى تمام مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليـه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء فى مؤلفاتهم ، وأهـل النحو فى مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات فى جميع صناعاتهم ، ولم يجز معارضة أبى تمام فى كتاب شذ عنه فى الأبواب التى شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرى قدره ! !

ولو آقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلّت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شِعبا من شعاب البلاغة ولمجت الأسماع كل مردّد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) والى متى "صفحنا عن بنى ذهل" — الى أن قال "وهلا حثثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك"[1] .

١٠ — تلك هى الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهى كما يرى القارئ تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع اليها من يطلب المزيد . ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالمنادى وكان من أهل قزوين :

حُجّ مثلى زيارة الخمار ... واقتنائى العقار شرب العُقار

ووقارى اذا توقر ذو الشيـ ... ـبة وسط الندىّ ترك الوَقارّ

ما أبالى اذا المدامة دامت ... عذل ناهٍ ولا شناعة جار

رب ليل كأنه فرع ليلى ... ما به كوكب يلوح لسارى

قد طويناه فوق خشف كميل ... أحور الطرف فاتن سحّار[2]

---

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبى نواس لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشراب، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را ... ح بسكران غدا فى خمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارنى فى الدجى فنم عليه طيب أردانه لدى الرقباء

والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ماشبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب

ولكن هجرت فحل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ فى نقد آرائه فى فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

obeikandl.com

٤ – نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية

١ — الفقه العلم بالشىء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما فى القاموس المحيط . وفى أساس البلاغة (قال أعرابى لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفى الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين) وفقهت فلانا كذا وأفقهته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر لجرير بن عبدالله كنت سيدا فى الجاهلية وفقيها فى الاسلام . قال الزمخشرى وتقول فلان بين الفراهة : فى أبواب الفقاهة . وخل فقيه عالم بذوات الضبع[1] وذوات الحمل .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة فى التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة " فقه اللغة " لم يكد يتفق القدماء على إفرادها بمدلول خاص . وانما نجدها فى تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والثعالبى يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) انما سمى بهذا الاسم وَفقا لاختيار الأمير الذى أهداه اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جريا على خطة اتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدى فى محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ ان كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . واذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

---

(١) الضبع — بفتحتين — شهوة الناقة الى الفحل .

من حيث تصنيف الكتب العلميـة ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينـه فى المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية " .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح «الفيلولوجى» مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسـية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينيـة مثلا أن يقف عنـد معرفة اللغات الايرانية بل عليـه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة " فقـه اللغة " التى اختيرت لترجمـة كتاب الثعالبى لم يَرُم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال " هذا الكتاب الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها " وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قـد فكروا فى فن جديد غير ما عُرف من علوم البـلاغة وما اصطُلح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجـد من يُعنى بتدوين أصـوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وانما ظل كما ابتـدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصـيل

ويعوزها النقد والتميز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم مايؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر و إهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبى أن " الارتكاض " حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلدل" حركة الشيء المتدلى — و"الترجرج": حركة الكفل السمين والفالوذج الرقيق . و"النسيم": حركة الريح فى لين وضعف . و"الذَّماء": حركة القتيل . و"النودان" حركة اليهود فى مدارسهم[1] . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلا وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهونشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحدّ الذى يوجب الحدّ فهو سكران . فاذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فاذا كان لا يتماسك ولا يتمالك فهو ملتخ . فاذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطلق لسانه قيل سكران بات وسكران ما يبت[2] . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبى شيئا عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أو فى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلا فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبى أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعى وأن (سكران بات وسكران ما يبت) كلاهما عن الكسائى ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روعى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبى فى "فقه اللغة" وآبن سيده فى "المخصص" وآبن الأجدابى فى "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه آختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

---

(١) ص ٢٧٥ (٢) ص ٤٠٢

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد فى مادة الإنشاء بجمع ما تبدد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدّون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك كجذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع[1] .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى فى "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شُغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل فى أصول النحو ما عمله الذين سبقوه فى أصول الفقه[2] . وهذا وذاك سعىٌ إلى غاية واحدة هى إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبى وابن جنى وابن سِيده من دقائق هذا الفن العجيب، والبحث عن المصادر الأولى التى مهدت لهم السبيل إلى التعمق فى بعض الأبواب، وتعقب الآثار الأدبية التى تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — فى كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربى وأول من كتب به وهو ينقل فى سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلثمائة سنة . كتبه فى طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربى . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من عَلَق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول «فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تُعلم صحته إلا من خبر صحيح »[1] .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم " هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك" ويقول فى سذاجة " ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقّف الله عز وجل آدم عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ماشاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ماشاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت، فان تعمَّل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده"[2] وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبتدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . " إن العرب تفعل كذا بعد ما وطّأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا الرأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وان لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

(١) الصاحبى ص ٧ و ٨ (٢) ص ٦

٥ — وقد عُنى ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبيّ بن كعب كتف شاة فيها "لم يتسن" و " فأمهل الكافرين "و"لاتبديل لخلق" فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلىّ من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران»[1] ولست أجترئ على ذلك وقرأ (فأصَّدق وأكون) فزاد واوا فى الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان علَى ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير فى رسم المصحف وأن يبين إلى أى حدّ يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير فى الكف عن التعمق فى درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد. ونحن أيضا نكتفى بالاشارة إلى هذا البحث الخطير[2] .

٦ — المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا فى الاسلام: فالنحو من وضع أبى الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجانى . الى آخر ما يهجس به أدعياء التاريخ. وقدتنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها فى حركة واحدة آتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون[3] .

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلى والأموى ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى "النحو التاريخى" ونحن فى حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

obeikandi.com

وهنا يجب أن نشير الى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا فى أيدى الناس ثم جدّدهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدَّد لا مبتكر ، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" فى عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولابن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خِلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان ، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الاغراء (كذبك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو عِدونى وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موظبا

وقول الآخر:

كذب العقيق وماء شنّ بارد ان كنت سائلتى غبوقا فاذهبى

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض "عنك شيئا" وقول الأَفوَه :

عنكمو فى الأرض إنا مذحج ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأحمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسَّر بعد . وقول أبى ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبـد لآل أبى ربيعة مسبع

قال ابن فارس : فقوله "مسبع" لم يفسر حتى الآن تفسيرا شافيا .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و"ياهىء مالك" و"ياشىء مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و"ويهك" و"إنيه" ولاقول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضـعه فكثير كقولهم "حى" و"حى هلا" "وبعين ما أرينك" فى موضع العجل . و (هج) و (هجا) و"دع" و"دعا" و "لعا" للعاثر يدعون له وينشدون :

ومطية حمّلت ظهـر مطية حرج تمى مِنْ عثار بدعدع

ويروى عن النبى أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعلع . ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع" قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عنـد القوم ما كرهـما النبى . وكقولهم فى الزجر "أخر" و"أخرى" و"دها" و (هلا) و (هاب) و"ارحبى" و"عد" و"عاج" و"ياعط" و"يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئى ولا الهئ امتداحيكا

وكذلك "إجد" و"وأجدم" و"حدج" .

قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا .(١)

---

(١) ص ٣٤ — ٣٧

تأمل أيها القارئ فى هذه التعابير المجهولة وآذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هـذه التعابير متأصلة فى لغـة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بدّ من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف فى عصر ثم جُهل وما استُعمل ثم تجافاه الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب فى طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقـد تنبه ابن فارس الى التعابير التى لا يمكن الوصـول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذى لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و (الدهر) و (الأوان) فانك لا تدرى اذا قال الحالف «والله لا كلمته حينا أو زمانا أو دهرا» الى أى حدّ يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشىء منه على حدّ معلوم ومن هـذا الباب على رأيه قولهم فى الغنى والفقر وفى الشريف والكريم واللئيم اذا قال « هـذا لأغنياء أهلى » أو « فقرائهم » أو « أشرافهم» أو « كرامهم» أو « لئـامهم» وكذلك إن قال «امنعوه سفهاء قومى» لم يمكن تحديد السفه (١) .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب فى حجره عليه؟ فقيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفيه . فقرئ على القاضى قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلمونهن بمـا علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل (٢) .

٩ وقـد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنهـا انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ .

(١) ص ٣٦ (٢) ص ٣٧

ثم أعقب هـذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قـد يدل باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا .

"وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسـية لمـا أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ "[1] .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهده من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، وللحية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره ان سأل الرشـيد الأصمعى عن شـعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصمعى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال "يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما" وكان من آثاره أيضا أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثرا من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

(١) ص ١٢

يرمى بهـا الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق فى أحشاء البـادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمـادة المكائرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحية مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا فى أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربيـة من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون اننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التى نزل بها القرآن؟ أفتستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندرى كم تعدون من الأسماء ؟

١٠ — وقد غفـل ابن فارس عن تأثير الاقليم فى اللغة العربيـة فظن التعابير التى انفرد بها العرب — لمـا تتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربى أن يعبر عن قولهم (رحب العطن ، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعىّ بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هـذه التعابير ليست إلا تمثيلا لمـا يراه العرب فى باديتهـم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفـرس والروم تعابير كهـذه أخذت مما تقع عليـه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يسـتطيع العرب أن يسيغوها لأنها وقعت على غير ما يألفون .

٥ – النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحقده على المعلمين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم البيان — كيف تكون ملاحة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعاني — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سياسة نفسية من المتكلم للمخاطب — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحمق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوابع والزوابع"[1] الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء . وقد اجتهد في أن يخفي علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصبغ أحكامه بصبغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريده من التخصيص، ولكنه غُلِب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لندرك أن أقواله مُشربة بالضغن والحقد وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف واشتقاق : لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع في باب « الأخبار والأقاصيص » من الجزء الأول .

٢ — يحدّثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين فى قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يختون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، الى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدبّ لها فى نور البيان، سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليمانى من الرقص على الايقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالحمار الذى لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لحمار أن يغنى :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار، ويرخى الوتر فى مجرى السبابة والبنصر فيبلبل بنشيده، ويولول فى ضربه، وكذلك حال المتعلمين فى قرطبة على رأى ابن شهيد[1].

٣ — وفى موطن آخر نراه يندّد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

"ومما علم من خلق هذه العصابة اذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس، تراهم الينا مبصبصين، وعن الأخذ فى شىء من تلك المعانى واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال[2] ... الخ" .

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات فى تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

"إنا اذا اكترينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى الشهر، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم" وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه فى كتاب البيان والتبيين الذى ألفه الجاحظ وهو فى رأيه كتاب لم يكشف فيه "عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج" ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتـداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته ، وضن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثمرة الفهم" لأنه عرف «أن النفع كثير والشاكر قليل" ولذلك كان كتابه فى البيان موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على مارآه فى كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ فى التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته فى تسطير كل مايمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . ومانكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما نتمثـله رجلا يكتب لنفسه قبـل كل شيء ، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفيهم أن يدوّنوا ما يسـمعونه أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك فى البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوى الذى يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البيانية ، فان البلاغة فى الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لايراد به التركيب الخالى من الغلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية ، وإنما هو التركيب الذى يستوفى الدقائق المعنوية التى يهتم بتقييدها علماء المعانى . أما فصاحة الغريب فهى عند ابن شهيد وضـع اللفظة الغريبة فى موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمـة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه فى هذا الباب :

« جلس إلىّ يوسف الاسرائيلى وكان أفهم تلميذ مرّ بى وأنا أوصى رجلا عزيزا علىّ من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إى والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست ، قوانين من الكلام مَن طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إنى يوم بانوا فلم أمت خفاتا على آثارهم لصبورُ
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مَطيرُ

فقال : إى والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسمت شيئا من نسيم الفهم فآغد علىّ بشىء تصنعه .

قال ابن شهيد : «وكان ذلك اليهودى ساكنا يعى ما أقول فغدا ذلك القرطبى فأنشدنى :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبى بالجبال

فى أبيات تشبه وجاء اليهودى فأنشدنى :

أيم ركبانهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

وآستمر إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن ، فقال لى ذلك القرطبى : شعر اليهودى أحسن من شعرى ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرّب باختلافه إلىّ حتى ندى تُربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقه (١) . ورآنى أستعمل وحشى الكلام

(١) ضاع عبقه : انتشرت رائحته .

فى موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فآستعمل شيئا منه وعرضه علىّ . فقلت : استره ! فقال : تبخل علىّ به! وعرضه على ابن الإفليلى فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه فى موضعه وهو أدرب منك[1] » .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام ، فاذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدّثنا الصاحب فى مقدمة كتابه عن مساوى المتنبى أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن[2] » .

و بذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافى والأوزان بالمعانى ، فليس كل وزن بصالح لكل معنى ، لأن بعض القوافى والأوزان أرق أو أضخم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعانى ألطف أو أجزل من بعض ، وفطنة الشاعر والكاتب هى التى تؤلف بين المعنى و بين لَبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطَبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهى ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطَبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس فى جميع الأحوال ، و إنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذى يرمى إليه عند الخطاب . ويقول فى ذلك :

«وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط[3] العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع فى كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فاذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدمة كشف مساوى المتنبى .

(٣) الخبط : السؤال ، من خبط الشجرة شدّها ثم نفض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البائس فى عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بهـا كمه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا فى أن نكشف له السر الذى حرك العـامة فبذلت ما عندها له و بادرت برفدها اليه[1] » .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين فى الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها فى بلاغة جميع الطبقات .

والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبى عامر حين طُلب منـه كشف السر الذى حرك العامة فجادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول فى الجواب :

"وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذى يريد منا تعليمه هو البيان و بين فكره و بينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان[2]" .

٨ — وابن شهيد يرى أنه ليس فى مقدور كل بليغ أن يصـل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجع فيهم تقريظ ، و إذ ذاك "يحتاج الى أثقب ما يكون من الذهن وأوسـع ما يكون من الحيلة . إلا أن هـذه العصابة لا يمكن لذى النباهـة تحريكها ولا بد لهـا من طبقة يكون لها فى العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويصا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب[3]" .

وهذا الذى يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة فى بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن فى تلك المواطن وحدها يُحتاج الى بيـان الكتاب والخطباء

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٠ (٣) ص ١٢٠

والشعراء، و بمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه فى درك ما يتعسر على سواد المنشئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبث ولؤم جوانبُ من الضعف ينفذ اليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا فى المواطن التى تبدو مفروغا من الكلام فيها ، وميئوسا من فائدة العود الى شرحها وتفصيلها ، فان المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الجو جو بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مردّد معاد ، عند ذلك يعرف البليغ الموفَّق كيف يحوّل المسائل الظاهرة الى مشاكل عقلية و روحية واجتماعية ، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم الى جِواء من البحث والتفكير و يقفهم موقف الحيرة والتردّد بين الخير والشر والبر والعقوق . فليس البليغ هو من يأتى فقط بالبِدْع الطريف ، ولكن البليغ هو من يحوِّل الموضوعات العادية الى شئون جدية طريفة تتحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود . وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم ، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح .

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس الى مكامن الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقون أمام دعوات الخير والبر والاحسان ، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان .

وجملة القول فى هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية ، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشدّ خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل ، وكذلك البليغ يكون فى أحيان كثيرة شرا مستطيرا على المعاندين ممن يخاطبهم أو يراسلهم أو يحاورهم فى جدّ أو فى هزل ، من قرب أو من بعد ، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما فى الروح من حب أو حقد ، أو عتب ، أو ملام ، وصبّ ذلك كله فى رفق أو عنف فى أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدوّ أو صديق . وذلك يفرض أن تفيض علينا البلاغة ونحن فى أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة ، وفى أسمى أوج من الغضب أو الحنان ، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهاجم

ونفتك ، ونسيما يتأرّج حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام فى ذهول ومن غير درس لأنفس المخاطَبين فهو العىّ الذى استعاذ منه الخطباء ، والإفحام الذى تهيب عواقبه الشعراء .

ومن الناس من يظنّ أن البلاغة ليست إلا سواد المداد فى بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفته أن يقرر أنّ سر البلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

" فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يُطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال وحسن الرونق .

" فمن كانت نفسه هى المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتنعش النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطابت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى"[1] .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع الى ما طُبع به الكلام من شرف الطبع وسمو الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبوس لا قِوام له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصى الناقد بأن "يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ"[2] .

(١) ص ١١٧ (٢) ص ١٥٦

ويقرر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعانى" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطى الفصل ويركب الحدّ، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته[1]".

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى فى بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، وهى مع ذلك خلو من غرائب المعانى؟ فلنعرف الآن أن السر فى إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهناك أفراد غَناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك نُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب. وهذا هو سر ذيوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فِطر سليمة، وطبائع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدّى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله فى المعلمين بقرطبة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة[2]، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعيذ بالله أن لا يشوه خلقة قلوبنا وجرم أكبادنا[3]".

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك فى أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى فى صورته. والصور المقبولة تبعث فى أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة فى شىء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظماء: فهم فى الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحدوة: عظم الرأس مما يميل الى القفا. (٣) ص ١٢٢

١١ — وابن شهيد وفىّ لمبدئه فى ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحمق . وقد خطّأ أبا القاسم الافليلى فى تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن إفراط جحوظ عينيه قعد به : لأنه لابدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه، وأذن ذكية تسمع منه حسه، وأنف ذكى لا تُذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة، سليم آلات الحواس، نقى الثوب، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة، مكحل الأظفور، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص فى أدوات الكتابة فقال :

"ربما أنكر قولنا فى شرطه جمع أدوات الكتابة فقيل : وأى أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالما غير عاقل، وجدليا غير حصيف، وفقيها غير حليم. وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر ممن ينسبه الى الجاحظ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة، ناهضا فى ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، فى صفة غراميل البغال، وغير الكلام فى الجرذان، وبنات وردان، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا" (١)

وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صور غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك، وبمقدار نجاح الكاتب فى دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هى التى قعدت به كما قصّر بابن شهيد نفسه ثقل سمعه، وكما تخلف صاحبه الأفليلى لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

(١) ص ١٢٣ و ١٢٤

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا فى تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب فى أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشدّ الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم فى مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يهتم بالصغائر فى العلوم لأن العلم فى أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذى يظفر به الكتّاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ فى ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . وياويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ – أبو بكر الباقلانى (١)

١ – لم يصل الينا من آثار أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفى بقاء هـذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلانى غير كتابه فى إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه: لأنه فى موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس فى عصره يرتابون فى إعجاز القرآن وكان فى ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التى كان يذيعها الملحدون فى الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التى أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما، وعلى صدق نبيهم برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق، شديد النِّفاق، مستول على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس ، وأهله فى جفوة الزمن البهيم، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه، والأخذ فى سبله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين . وقد قل

---

(١) ولد الباقلانى فى البصرة، وسكن بغداد، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظر الى جبل تمشى الرجال به ... وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام مغتمدا ... وانظر الى درة الاسلام فى الصدف

والباقلانى : نسبة الى الباقلى بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ[1] » .

وليس فى هذه الفقرة شيء جديد فان شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التى يجدها المطلع فى أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثرون من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيغ والالحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك فى نفس المؤلف ، وفى هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين فى إعجاز القرآن .

٢ — ونحب فى بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا فى درس كتاب الباقلانى عن الإعجاز . ونقرر — فى صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وانما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم فى وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلان فى نظرنا صورة للحياة الأدبية فى أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة فى تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل فى تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذى يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التى حاولها خصوم القرآن ، ففى تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة فى أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فان ذلك فى جملته يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدثنا الباقلانى أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه[2]) — ففى

(١) ص ٩ و ١٠ (٢) ص ١٠

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغى أن نقيد أنها وقعت فى القرن الرابع . ولو أن الباقلانى بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حدّ كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبى ، ولكن ما صنعه الباقلانى نفسه فى نقد امرئ القيس والبحترى يحدّد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهى المعلقة فنقدها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب فى جودة شعر امرئ القيس ولا يشك فى براعته وفصاحته وما أبدع فى طرق الشعر من أمور اتُّبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذى أحدثه والتلميح الذى يوجد فى شعره والتصرف الكثير الذى يصادَف فى قوله والوجوه التى ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة . ولم ينقد الباقلانى معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهى على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ، ويتلون تلوّن الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارَن بالقرآن الذى يصفه بأنه "قول يجرى فى سبله على نظام ، وفى وصفه على منهاج ، وفى وضعه على حد ، وفى صفاته على باب ، وفى بهجته ورونقة على طريق مختلفة مؤتلفة ، ومؤتلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن" .

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلانى ومعاصريه رأوا أنه فى الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وان لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساويها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابَل ما سلم فيها بالسورة التى توازيها فى الكمية ليظهر ما فى السورة من المحاسن التى لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهـذا النحو من النقد يعـدّ من المحاولات البارعة فى الأدب العربى . ولا عيب فيـه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لهـا بالفضل . والباقلانى كان يعمد الى القصائد التى يعرف فيها الضعف ليصل دائمـا الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن فى قول البحترى :

ما الحسن عندك ياسعاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمـال بجمـل

وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمـال عليك وقفا أجمـلى

مع أن الذى يفهم الشـعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن ببيت البحترى إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلانى يأخذ فى نقد بيت البحترى فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشـعراء : وفيه شىء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وفى تهييم قلبه . وضد هـذا المعنى هو الذى يميل اليه أهل الهوى والحب .

٥ — هذا كلام الباقلانى . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحترى على الاطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيـدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حَكَم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟ إن الذى يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مسـتعدا للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوى القصـيدة ويطمس محاسـنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو فى مقابل ذلك يجـدّ فى البحث عن محاسن السورة القرآنيـة وإبراز مزاياها ولا يستبيح لنفسـه التفكير فى وضـع ألفاظها أو معانيهـا أو أغراضها أو أسلوبهـا موضع النقد . وهذا كاف فى تجريح ما همّوا به قديمـا من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين فى إعجاز القرآن .

وهى إعجاز غير القرآن من كلام الله كالتوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجيب الباقلانى بأنه لا شيء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدّى اليه كما وقع التحدّى إلى القرآن (١) .

ومعنى ذلك أن الباقلانى يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدّى المعارضين اليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلانى أن يوجه اليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها التوراة والانجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى الى حدّ الاعجاز . وانما يقع فيها التقارب فى البيان (١) .

فان سأل القارئ : أكان الباقلانى يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدّثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب (١) .

٧ — وهنا يتطوع الباقلانى بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

---

(١) ص ٣٤

«ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية»(١) .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

« انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب»(٢) .

والفكرة فى ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التى لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل . والقرآن نفسه الذى اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات فى كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية فى غير تعمل ولا اعتساف .

٨ — ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية فجاء أخيرا وطعن لغتنا طعنة دامية فى تقرير مطوّل قدّمه الى وزير المعارف فى باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « ما ئعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات(٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف فى هذا الموضوع لأنه فى تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التى كان منها خمسون اسما للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للاسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهى أساس لغتنا العربية وانما هى كلمات «تصيّدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا فى المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلانى وابن فارس ان ما كان غُرة فى زمانهم أصبح فى زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبى ص ١٢

(٣) كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير فى أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التحمل من جانب الباقلانى ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ماقد اتفق فى العربية وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع مايمكن ويتأتى فى العربية وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية » .

٩ — وهذه التهم التى كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا فى أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق فى الانجليزية والفرنسية والألمانيه مثلا « وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما نشابه التهم على اختلاف الأجيال !

على أن كلام الباقلانى له دلالته ومعناه : فهو صريح فى اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب فى مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان[1] .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومى » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسى واليونانى ظنا منهم أن فى شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه فى غير اللغة العربية التى حسبوها تفردت بالتصرف فى الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا فى هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وانما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية فى القلوب والعقول .

ونؤمن بأن فى اللغات ضروبا من التصرف فى القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبى شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يغيض .

ووقف المجدّدون فى الشعر موقف التردّد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحترى والمتنبي ، ولاهم فى طبعهم فرنجة يجيدون محاكاة بيرون وجوت ولامرتين .

١١ — وقد جاء فى كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ؟

فما هى حجة الباقلانى؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك ان جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعًا فى أن يأتى أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة ﴿ حم . السجدة ﴾ من أولها حتى انتهى الى قوله : ﴿ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلانى " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والردّ . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه[1] " .

ذلك ماقرره الباقلانى . ومانحسب أحدا يرتاب فى أن هذا محض اختلاق : فانه لايعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقُصاص .

ويقول الباقلانى فى موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا

(١) إعجاز القرآن ص ٣٠ و ٣١

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمى وعربى﴾، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى ردّه إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحدّاهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم [1] ".

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التى نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو مائتى صفحة فللباقلانى عذره حين غاب عنه هنا ما أثبته هناك.

فخلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خشع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية أن القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا فى ردّه بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا فى هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر فى الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية. وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل فى ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربى .

وقد تكون جملة وضعت فى ألفاظ أعجمية ورتبت فى وضعها على الأسلوب العربى . ولكننا لانفهمها لأن ألفاظها غير عربية. ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لانه عربى اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلانى من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آى القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما منّ به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربى مبين .

(١) ص ٢١٨

١٣ — بقى نوع آخر من وجوه التفاضل فى الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما فى المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفى أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البديهيات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفى أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . و إنما يجب أن يكون مع صدقه طريفا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريط بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومى وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهمو قوما إذا ركبوا شدّوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كلمة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

هـذا البيت يمكن رجع طرافتـه الى كلمة " أبدى ناجذيه " وكلمة " طاروا " وهاتان ليستا كلمتين و إنمـا هما المعنى تجسم فى لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قـومى وان كانوا ذوى عدد ليســوا من الشر فى شئ و إن هانا

فقوّة هـذا البيت ترجع الى قوله " وان كانوا ذوى عدد " وقوله — " وان هانا " وفيهما أيضا يتجسم المعنى فى قوّة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم فى قوله :

كأن ربك لم يخلق لخشـيته سواهمو من جميـع النـاس إنسانا

١٤ — وقد تجد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوّة الروح تصـل به الى أسمى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعـلى يشكو فقره وما وضع القدر فى رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلنى الدهر على حكمـه من شامخ عالٍ الى خفيض
وغالنى الدهر بوفـر الغـنى فليس لى مال سـوى عرضى
أبكانىَ الدهر ويا ربمـا أضحكنى الدهر بمـا يرضى
لولا بنيات كزغب القطـا رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسـعٌ فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهـم لامتنعت عينى عن الغمض

وقوّة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا إلى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجـاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسّنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهرهم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون فجاء القرآن فجمع بين السجع والترسل فى نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه فجاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد[1] .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فنرى أن محمدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبى ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامى لم يكن جديدا عند العرب وانما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التى كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعرض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما فى القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه و إفراده بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذى يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

"لو قال هـذا وسكت لكان أشعر الناس" .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

"أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو ابن كلثوم إذا غضب" .

وهذا كلام دقيق جدّا لأنه يضيف قوّة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدّث عن ذات نفسه وعن ضميره و روحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أفصح اذا شبّب . وذلك أفحل اذا تحمس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية فى الأمم التى نعرفها لرأيناها ترجع الى المعانى والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع فى فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

(١) راجع ص ٦٣ و ٦٤

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفى مصر والشرق العربى كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبى القديم بين محمدعبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التى وقعت بين على يوسف وعبد العزيز جاويش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدّا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة. وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطى كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموه ادّعوا أنهم يحاربون فى شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال فى أن الألفاظ والأساليب تتلوّن وتتشكل بلون الفكرة التى تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعانى لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فمرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معانٍ وديعة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبى فمرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع فى أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أفبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التى تفصح عما يطيف بها من معان وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوّة المعنى وقوّة الروح . فان قيل : ولِمَ تعذر عليهم أن يأتوا بشىء من مثله؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

فى هـذه المسألة حين قال ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وآدعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

فلتتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان فى مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ماوصل اليه مواطنهم و زعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذى صدقت كلمتهم فيه قبل نبوّته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القـدماء من يرى أن البـلاغة لا ترجع الى المعانى : لأن المعانى فى رأيهم يعـرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى . و إنمـا ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصـــفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعانى فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الافهام وان الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل فى جملة المستهجن الملفوظ[1] .

١٩ — أما نحن فنلق العجم والقرويين جانبـا ونحصر البلاغة فى جمهور المثقفين . ثم نقرّر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا فى المعاجم والدواوين، ولا يبقى موضعا للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعـانى والأغـراض . ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فان هذا إسراف فى تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ فى مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجىء أوّلا ويجىء الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقـد رأى ناس قول الباقلانى "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبينا، لأن الأسلوب فى رأيناهو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

(١) راجع الصناعتين ص ٤٢

وروحه وفكرته ومرماه، وليس فى مقدور أحد من المتفوقين فى علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق اليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربى مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب فى هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة فى هذه الآيات الى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف، والسجع كان معروفا قبلَ القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعانى والأغراض؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت فى هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل. فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى؟ هيهات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشىء عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا فى المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيثار العدل فى جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشنآن . وقد راجعت صديقا اديبا فى هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى فى كلمة (ولا يجرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لنتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هوأقرب للتقوى) تقل فى قوتها عن كلمة ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرّد فى رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بكر لا يجرى إلا على ألسنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدّى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل ثناءه ﴿ ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونه فى اللفظ ؟ أترونه فى الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجدها من يريد فى أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . ان الجمال هنا فى الروح العالى : حيث يخاطب الله الآثمين وقد ألقى بهم فى نار الجحيم .

٢ . — نترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابى يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله فى يدى !

تأملوا عبارة "لله فى يدى" لتروا انها من نوادر الكلام الجيد البليغ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

" كتابى هذا كتاب معنىّ بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه ، وأرجو أن لايضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام " .

أفترون هنا جديدا فى لفظ أو فى أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر فى المعنى لو تنظرون.

وكتب أحد الأمراء يوصى بعض قواد الجيش :

" وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك " .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونه فى شىء غير المعنى ؟

وكتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى :

"عُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، و باشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا " .

وهى نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله " فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا " .

أفترون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، فى شىء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادىّ لاطريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت؟ ألا ترون أن لفظة "شهوات" لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

الى الله أشكو فقد لُبنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيمُ

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته فى غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرءوم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغى يمينى ولو عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينىَ مالى يا بثين فانما يبيَّن عند المال كل ضنين
فما لك لما خبَّر الناس أننى أسأت بظهر الغيب لم تسلينى
فأُبلىَ عذرا أو أجيئ بشاهد من الناس عدل أنهم ظلمونى
لحا الله من لاينفع الود عنده ومن حبله ان مُدّ غير متين
ومن هو ذو لونين ليس بدائم على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر فى رقته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمره لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هى صفات للمعانى تتمثل فى أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو اننا عدنا الى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يُعد الشاعر سارقا للمعنى و إن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يجئ حديثها بخير وقد أعيا كليبا قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يجى صغارها بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وهذا ليس بشىء فى جانب المعانى التى تؤخذ من المدح الى الهجاء ومن النسيب الى الرثاء وهى كثيرة جدا ، ومع ذلك تنبه النقاد الى أنها سرقة ،وتنبه الشعراء الى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة[1] "

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون فى الصياغة الفنية ، ولكننى أومن قبل كل شىء بالمعنى

(١) الموشح ص ١٤١

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال فى أيدى الرجل : فالسيف هو السيف فى يد البطل وفى يد الجبان ، ولكنه فى يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه فى يد الجبان أقل غَناء من العصا فى يد الوليد . والخيل هى الخيل ، ولكن الجواد لايكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوته فارس مغوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هى المرأة ، ولكنها بين يدى الرجل الغزل أنضر منها فى حضرة الرجل البليد ! والكتاب المجيدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتا شديدا : فهم فى بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم فى أيام أخر يُسفّون ويتهافتون . فما سبب ذلك؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثرا بليغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغا فى جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعانى الجيدة بطائعة للكاتب فى كل لحظة ، ولا الروح القوى بمواتيه فى كل حين . أيفهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب فى اللفظ والأسلوب ؟ أيفهمون الان أن القرآن يمثل النثر العربى فى العصر الذى نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلانى قوله بنفى السجع من القرآن ، وهو يتابع فى هذا أبا الحسن الأشعرى وأصحابه ، ويعارض جمهورا كبيرا من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى الفصاحة والبيان . ومن أقوى مايستدلون به على وجود السجع فى القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل فى موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع ، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"[1] .

(١) ص ٥٩

والواقع أن السجع موجود فى القـرآن فى مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقـه ما يقول، ومن أمثلته : ﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل[1] ﴾ .

ومن أمثلته أيضا : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود ، قتـل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[2] ﴾.

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كوّرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العِشار عُطِّلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سُجِّرت، وإذا النفوس زوّجت، وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلفت، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنّس، الجـوارِ الكنّس، والليـل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عنـد ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقـد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين[3] ﴾ .

ولا أطيـل فى سرد الآيات المسجوعة، ففى السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهـم أن نعرف ما هى حجة الباقلانى على نفى السـجع من القرآن لنقـدر وزنه للحجج والبينات، وهو يقول :

" لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب، ولو كان داخلا فيهـا لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز، وكيف والسـجع ممـا كان يألف الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوّات، وليس كذلك الشعر[4] " .

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكوير . (٤) ص ٦٠

وهذا كلام ساقط ضعيف، فالسجع موجود فى القرآن، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به، لأن الاعتراف بوجوده فى القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب، والاعجاز فى رأيه ينحصر فى الأسلوب، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف اتفق للباقلانى وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب فى لعب وضلال فى ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يلجأ اليه الكاتب والخطيب رغبة فى التأثير، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا، إذ كانوا قادة الجماهير فى الجاهلية . والسجع فى القرآن لا يمنع من إعجازه، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم فى أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلانى، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوّة لم يكن من تقاليده الاهتمام بالشؤون الجدية، وخاصة المسائل الروحية والدينية، ولذلك نجد القرآن يعرّض بالشعر ويتهم الشعراء باللغو والفضول والهيام فى أودية الخيال . والشعر مع هذا فى أسلوبه لعهد النبوّة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التى أطال فى شرحها القرآن، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب فى أساليبهم كما ظن الباقلانى وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلانى لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع فى فهم السجع فيقول :

" والذى يقدرون أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ،وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدّى المعنى المقصود فيه و بين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى آرتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحح المعنى[1] " .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعا إلا اذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلانى بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار الى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن اذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا المعنى، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى، لا كما يفعل المتكلفون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلانى إذ يقول :

" لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب الى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعرا ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متدانى المقاطع ، و بعضها مما يمتدّ حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير، وهذا فى السجع غير مرضىّ ولا محمود[2] " .

---

(١) ص ٦٠ و ٦١ (٢) ص ٦١

ووجه الخطأ هنا أن الباقلانى يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس، وخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته و بلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على ألسنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم فى التزيين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع فى القرآن لم يفرضوا التزامه فى جميع الأحوال ولا وقعوا فى مثل ما وقع فيه الباقلانى من الخطأ حين نفاه على الاطلاق[1] .

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أطوار السجع» فى الجزء الأول .

٧ – أبو القاسم الآمدى

١ – لم يصل الينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة – ولا ندرى متى – وأنه انتقل الى بغداد فتلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السَّراج ، وأنه عاد الى البصرة فكتب لأبى الحسن أحمد وأبى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضى أبى جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة الى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ .(١)

٢ – وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه فى الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلا على أن حياته العقلية قُصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التى أشار اليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى . وكتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر . وكتاب معانى شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطّأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت .(٢)

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه فى حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبى تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل الى شيء كثير من المعارف الأدبية التى كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ – ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وَفقا لاختلاف الأحوال أو توافُق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصا على تُتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ — وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات — كما قال ياقوت — ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوب ينقصه الرُّواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان فى الزمان ... ممن يجاريه أو يدانى
دعنىَ من نائل جزيل ... يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحا ... ولا أخًا طامعا ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا ... من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تمتام :

لا تنظرن الى تعتعه اذا ... رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها ... تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه ... حتى تقطع أنفس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيـ ... ـث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميـ ... ـل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فويق القفا ... وطورا تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك ... فردت بقول كئيب حزين
دهانىَ أن لست فى قالبى ... وأخشى من الناس أن يبصرونى

وأن يعبثوا بمزاح معى وإن فعلوا ذلك بى قطعونى
فقلت لها مرّ من تعرفين من المنكرين لهذى الشؤون
ومن كان يشهق إما رآك ويخرج من جوفه كالرنين
ومن كان يصفع فى الله لا يمل ويشتد فى غيرلين
ويسلح ملأك كيل التمام إما على صحة أو جنون
ففارقها ذلك الانزعاج وعادت إلى حالها فى السكون

٤ — وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة نعجب لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمته إياها فى المعرفة بتلك الأشياء: لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحة سبيبه، واستدارة كفله ، وبريق شعره، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البصر به. ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه، وصقاله، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه . ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزه، وكثرة صوره، وبديع نقوشه، واختلاط ألوانه، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أو دقة معانيها أو ما آشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه فى مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التى لا يدركها إلا أرباب الصناعة[1] .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هنالك حاسة فنية يرجع اليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة و يكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة، وتكون الجاريتان بارعتين فى الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق و إنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحدا، وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفا[2] .

٧ — وهذه النظرية البعيدة فى تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سبق اليها ولكنه آستغلها أحسن آستغلال . وأجمل ما جاء فى هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلى : "قال لى المعتصم أخبرنى عن معرفة النغم و بينها لى — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة" .

قال : "وسألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشىء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان" . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشىء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

"إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد"[2] .

ولكن كيف السبيل الى كسب الذوق الأدبى أو الحاسة الفنية ؟

(١) الموازنة ص ٢٠٦ (٢) الموازنة ص ٢٠٧

هنا يجيب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر فى الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابسة له والانقطاع اليه، والانكباب عليه، والجد فيه، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه .

— والآمدى مع هذا يقرر بأنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبى بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلا لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسائله ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلا الى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومَن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك فى ذلك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابسة لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهدا لها كلها فى لحظة واحدة، عالما بكل علة، محيطا بكل حجة .

"وبعد فلعل الذى غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء تتصفحها أحيانا وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأنا لا نراك تبتاع وشيا ولا آلة ولا تصرف دينارا بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك . فكان خليقا بك أن تسلِّم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك . ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال"[1].

٩ — والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشىّ المعانى والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

(١) ص ٢٠٧ و ٢٠٨

للأعراب "لأن الأعرابى لايقول إلا على قريحته ، ولايعتصم إلا بخاطره ، ولايستقى إلا من قلبه . وأما المتأخر الذى يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلما ويأخذه تلقنا فمن شأنه أن يتجنب المذموم ، ولا يتبع من تقدمه إلا فيما استُحسن منهم واستُجيد لهم واختير من كلامهم ... فان الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالابداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة التعمل . ولكل شيء حد إذا تجاوزه المتجاوز سمى مفرطا . وما وقع الافراط فى شيء إلا شانه ، وأعاد الى الفساد صحته ، والى القبح حسنه وبهاءه » .

وخلاصة هذا الرأى أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال ، وهذا أحلى فى النفوس ، وأشهى الى الأسماع ، وأحق بالاستجادة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ماروى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هى أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين فى الصقل والتجميل .

فاننا نرى للأعراب حرية فى الحذف والايصال لا نجد لها ظلا عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية فى الحذف والايصال هى أخص سمات اللغات الحية . وفى اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة فى كتاب الموازنة أن الآمدى يريد بالذات مسألة التعمل والتكلف والإغراب بايثار وحشى المعانى والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة ، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو الى تهذيب اللغة وتصفيتها وتخليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضا أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمِّر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجر فمات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضَّل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهيه والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة (١) . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عِيب على البحترى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء (٢) " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبائع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أُثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادّة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

---

(١) راجع ص ١٣ (٢) ص ١٤

بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبى تمام وأصحاب البحترى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لانَ النثر وعذُب على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث (١) :

صاحب أبى تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر من أبى تمام ، وعن أبى تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائى الأكبر والطائى الأصغر .

صاحب البحترى — أما الصحبة له فما صحبه، ولا تتلمذ له ،ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج اليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أولها :

* أأفاق صب من هوى فأفيقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعرى وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحترى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبى سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه، ويصف معانيه، ويذكر محاسنه، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة. فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره، وفاخر كلامه، قبل أن يعرف أبا تمام، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته. ومن أراد الشواهد فليرجع اليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أوفى وأمتع

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعره . وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحترى ولا بمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام . فهذا كثيِّر قد أخذ من جميل واستق من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحترى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحترى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا . وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسِفّ أفضل ممن يسقط ويُسِفّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشُهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرىَ عن مثلها البحترى

صاحب البحترى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا يأول فيه ولا سابق اليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسَّنن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها آسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وآستكره الألفاظ

والمعانى استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبى تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما فى المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحترى فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا فى إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونَفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاعه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبى تمام — إنما أعرض عن شعر أبى تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحترى — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابى وأحمد بن يحيى الشيبانى ودعبل بن على الخزاعى من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم فى أبى تمام واذدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلثه مسروق ، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابى فى شعر أبى تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرِّد ما علمناه دون له كبير شىء .

صاحب أبى تمام — إن دعبلا كان يُشنأ[1] أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يُقبل قول شاعر فى شاعر . وأما ابن الأعرابى فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شىء منها يأنف أن يقول لا أدرى فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

---

(١) يشنأ : يبغض .

صاحب البحترى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى — كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا ، وكان الأصمعى شاعرا عالما ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحترى فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعده فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بدّ له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولّد من البدائع ما ولّد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز له عن خطأه . وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عفّى إحسانهم على إساءتهم، وتجويدهم على تقصيرهم .

صاحب البحترى — أما أخذ السهو والغلط على من أُخذ عليهم من المتقدّمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدّة أبيات يكون فيها مفسدا أو مُحيلا أو عادلا عن السنن أو مستعيرا أستعارة قبيحة أو مخطئا للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهما بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبى تمام — إنكم تنكرون على أبى تمام من الفضل ما يعترف به البحترى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحترى — لم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطَى فى تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبى تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبى تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى — إنما صار جيد أبى تمام موضوعا ومذكورا لندرته ووقوعه فى تضاعيف الرديء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين مايليه . وجيد البحترى بجيد أبى تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه مايفاجئها من جيد صاحبه .

٨ – أبو هلال العسكرى

١ – فى الأدب العربى رجلان باسم العسكرى يشتبهان كثيرا على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكرى . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه "الأعلام"(١) فأرخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغنى منها شىء غير أنى وجدت فى آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجى زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبى أحمد(٢) .

والعسكرى نسبة الى عسكر مُكرم، وهى مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذى تنسب اليه مكرم الباهلى وهو أول من اختطها، كما يقول ابن خلكان(٣) .

٢ – وكان أبو أحمد العسكرى من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يودّ الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج الى كشفها بنفسى، فأذن له فى ذلك، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكرى فلم يزره . فكتب الصاحب اليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتمو ... ضعفنا فلم نقدر على الوخَدَان(٤)

---

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخطو، كالوخد والوخيد .

obeikandl.com

أتيناكمو من بعد أرض نزوركم وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هـذه الأبيات شيئا من النثر فجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثـنى عزيمتى تعـوّذ أعضائى من الرجفان
فضمّنت بيت ابن الشريد كأنما تعمـد تشبيهى به وعنـانى
"أهمّ بأمر الحـزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان"

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : «والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لمـا كتبت اليه على هذا الروى» .

وقد رأى أبو أحمد أن هـذا لا يقنع الصاحب وانه لا بدّ من الحمل على النفس، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول اليه لاستيلاء الحشم، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبى تمـام :

مالى أرى القبـة الفيحاء مقفـلة دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنهـا جنـة الفردوس معرضـة وليس لى عمـل زاكٍ فأدخلهـا

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمـد فلك السابقة الأولى ! فتبادر اليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت! فقال الصاحب : يا أبا أحمد! تغرب فى كل شىء حتى فى المثـل السائر ! فقال : تفاءلت عن السـقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبى أحمد العسكرى سنة ٣٨٢ (١)

وانمـا كتبنا هذه الكلمة عن أبى أحمـد لأنه كان أستاذ أبى هلال، ولنرشد القارئ الى أن أبا هلال حين يقول فى الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فانه لا يريد رجلا سواه . ومن

(١) وفيات ج ١ ص ٢٣٥ وقيل سنة ٣٨٧ ياقوت ج ٣ ص ١٣٤

obeikandi.com

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبى أحمد العسكرى من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة فى أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتّاب[1] .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم فى اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عنى به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أبيّ النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكرى كان قدوة له فى ذلك، إذ كان الصاحب يستدعيه الى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر فى زمرة الأتباع وطلاب المغانم وأرباب الغايات .

كان أبو هلال يتجر فى الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذّل[2]، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى ... دليـــل على أن الأنام قرودُ
ولا خير فى قوم يذل كرامهـم ... ويعظم فيهـم نذلهم ويسـود
ويهجوهمو عنى رثاثة كسـوتى ... هجـاء قبيحا ما عليـــه مزيد

وقـــوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم[3] ... وحالىَ فيكم حال من حاك أو بجـم
فأين انتفـاعى بالأصالة والحجـا ... وما ربحت كفى على العـلم والحكم
ومن ذا الذى فى النـاس يبصر حالتى ... فلا يلعن القرطـاس والحبر والقـلم[4]

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبـل بالصاحب بن عباد ، وليس فى كتب التراجم ما يشرح لنـا صـلته بذلك الوزير الذى اسـتعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت . (٣) العجم : النوى .
(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكنى رأيت فى كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول اشادته بأدب الصاحب ، والثانى تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر فى استشهاده بكلامه ، كقوله فى باب السجع والازدواج : " ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جياده غرا وقرحا ، وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة فى فك حبسه "[1] .

ونرى أبا هلال فى مكان آخر يقول : "روى لنا أن عمر بن أبى ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم فى قبيلة واحدة وفى أرض واحدة فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقنى وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم[2] .

---

(١) ص ٢٠٢ (٢) ص ١٧٣

وفى هذه العبارة تظهر مجاملة أبى هلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التى قد يهبها الله للناس !

ونراه فى باب الفصل والوصل يقول : " وهكذا يفعل الكتّاب الحذاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب فى آخر رسالة له : فان حنثت فيما حلفت، فلا خطوتَ لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعيت الى مقام فخر، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التى لو سمعها عامر بن الظرب لقال هى الغموس[1]، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا فى آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك، توقع الظمآن للماء الزلال، والصوّام لهلال شوّال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه فى تجشيم مولاى الى هذا المجمع، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف[2] » .

٥ — وأما تحامله على المتنبى فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه، فهو لا يذكره باسمه، ولا يتحدّث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعانى ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إنى لم أرد بالذى به مدحت عليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : " فهذا كلام عاقل يضع الشىء فى موضعه، ويستعمله فى إبانه، ليس كمن قال وهو فى زماننا :

جفخت وهم لايجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل[3]

فأشمت عدوه بنفسه .

---

(١) اليمين الغموس بالغين المعجمة التى تغمس صاحبها فى النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفى باب الكناية والتعريض يقول : «ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ» .

و« بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته فى الكشف عن مساوى المتنبى[1] .

وفى باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه[2] » .

وفى باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

ظابتك من نسل الجديل وشدقم كومٌ عقائلُ من عقائل كوم[3]»

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبى هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبى فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبى مع التعامى عن معانيه الجيدة، وخياله الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كافوا بالبحث عن عيوب المتنبى ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد، وما أحط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ نثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ، والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

---

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم فحلان كانا للنعمان .

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبةٌ من التعمية . فاذا كان المعنى سَبيا[1] ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وان اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها[2] .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتّاب المتفوقون .

وانظر أيضا قوله :

" البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها . فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمَة بليغة ولا تكون ربتها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبى والمرأة "[3] .

---

(١) السبى ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة .　　(٢) ص ١٢٠ الصناعتين

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

obeikandi.com

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة، فهى فى رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ، ولا يمكن أن يطالَب الرجل بغير ذلك، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصداقة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء. وفى رأيى أن البلاغة كالموسيقا لا تُفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الرعاع. وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدّرها إلا الغربيون، ولو سمعها الشرقيون لسدّوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجام!

٨ — وكان أبو هلال يجيد الشعر، ويضع شعره فى طبقة أشعار المفلقين، فينشده فى الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبى تمام والبحترى، أو النابغة وامرئ القيس، ومن إليهم من القدماء والمحدَثين، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين، فنستحسن قوله — وقد أنشده فى باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى ... وهو يقصينى جهده
ولمن ترضاه مولا ... ك ولا يرضاك عبده
أمليحٌ بمليح الشـ ... ـكل أن يخلف وعده
أم جميلٌ بجميل الـ ... ـوجه أن ينقض عهده
ما الذى صدك عنى ... ليت ما صدك صده[1]

ونستجيد قوله فى تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روحى ... من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن ... قد سرق البرد من جوانح خِلّو

(١) ص ٢٤٧ من الصناعتين.

ريحه تلمس الصدور فتشفى وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دماثة دجن ثم من بعده نضارة صحو
وجنوبا يبشر الأرض بالقط ـر كما بشر العليل ببرو
وغيوما مطرزات الحواشى بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عُراها جمع القطر بين سفل وعلو
وهى تعطيك حين هبت شمالا برد ماء فيها ورقة جوّ
وليال أطلن مدّة درسى مثلما قد مددن فى عمر لهوى (١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ – كتاب الصناعتين

١ – أجمل أثر لأبى هلال العسكرى هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتمييز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هى أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهى فكرة كثيرة الذيوع عند المتقدمين : فعلوم اللغة العربية فى عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار باعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء[(١)] . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة فى ذلك الفن كانت لعهده قليلة وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو فى رأيه كتاب جم المنافع لما اشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه : فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير[(٢)] .

٢ – كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإنا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : «ولم يسبقنى الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلى على ذكر تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة اليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

(١) ص ٣ من مقدمة الصناعتين . (٢) ص ٥

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، و ربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه معرفة كثير منها،وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك، وتأتم بما شرحته منه، وتستدل به على ما ألفيته من جنسه اذا عثرت به، لتستغنى عن جميع ما صنف فى البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله[1] " .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت فى هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف فى سرق الشعر فمثل بين قول المبتدئ وقول التالى و بين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، و إنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فانى لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد[2] .

٣ — وأول ما يلاحظ فى كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، و إنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجمل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها فى كتاب سواه، واليك هذه الدرة التى نقلها عن كثير ابن هراسة فى وصية ابنه :

" يا بنى! إن من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودّة وآمنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم[3] " .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

(١) ص ٣٩ (٢) ص ١٧٩ (٣) ص ٢٤٠

استطراده أنه أراد أن يضرب مثلا للعلم الكثير فى القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابى : كيف حالك؟ فقال : ماحال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مأمنه . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة ... وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر :

كانت قناتى لا تلين لغامز ... فالانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ... يصحنى فاذا السلامة داء

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... اذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقاء العيش فيها وانما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وقريب من ذلك قول محمد بن على : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غَصَص ، وشربة ليس معها شَرق؟ فتأمل أمرك . فكأنك قد صرت الحبيب[1] المفقود أو الخيال المختزم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع فى نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب فى الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... وكيف يرى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء اذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك شيئا من مختار شعره فى هذا المعنى[2] .

(١) فى الأصل «الجيب» وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

٥ — ومما يؤاخَذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتّاب والشعراء فى كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له[١] "أما بعد فان المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل، فان حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لايخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما فى يديه لا ينبغى إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذى نهى الله عنه هو التبذير الذى يعاقب عليه، والاقتصاد الذى أمر به هو الإسراف الذى يغضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرهقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[٢]!»

٦ — ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وانما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين فى اللغة العربية، وصلنا به الى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعانى والألفاظ والأساليب.

٧ — وسر البلاغة عند أبى هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن فى ايراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه[٣]" ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعانى فقط، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام. ودليل آخر عنده أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا — والفاتر شر من البارد — كان مستهجنا ملفوظا، ومذموما مردودا[٤].

(١) ص ٣١ (٢) ص ٢٨١ (٣) ص ٤٢ (٤) أنظر ص ٤٢ و ٤٣

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جُعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعا جليلا ، وان اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى مالا يليق بها اقتحمته العين وان كان فائقا ثمينا .

وقد عرض فى باب التتميم إلى قول الخنساء :

وان صخرا لتأتمُّ الهداة به كأنه عَلَم فى رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتُدفَن منه الصالحات وان يُسِئْ يكن ما أساء النار فى رأسى كبكبا

إلا أنها أخرجته فى معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : "وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة"(١)

٨ — وحسن اللفظ عند أبى هلال موقوف على جمال المعنى، فلا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخف معناه(٢) . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور فى حسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه(٣) . وهو يفضل الكلام السهل، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب(٤) .

وهذا حق: فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق، وليس فى مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعا بما يفهمون فى لغة سهلة تجرى الى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم، ثم تظل مع ذلك فوق قُواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة، والمعانى الشريفة، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتنع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكو رب ما حلّ بى من صدّ هذا التائه المعجبِ
إن قال لم يفعل وإن سِيل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتب
صب بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب

(١) ص ٣١٠ (٢) ص ٤٤ (٣) ص ٣٩ (٤) ص ٤٤

وقول البحترى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى ... نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لى من هواك وجدا قد استه ... لك نومى ومضجعا قد أقضا
فخفونى فى عبرة ليس ترقا ... وفؤادى فى لوعة ما تقضّى
بأبى شادنٌ تعلق قلبى ... بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب ... يتثنى تثنىَ الغصن غضا
واعتذارى إليه حين تجافى ... لىَ عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقبيـ ... ـلا ولثما طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفتَ القلب فانصرفا ... ولم ترع الذى سلفا
وبنتَ فلم أذب كمدا ... عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا ... س ممن ملّه خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شىء آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل الى الرخاوة والانحلال ردىء مردود[1] .

والكلام الجزل يجىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا سمعته ولا تستعمله فى محاورتها[2] . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .

والجزالة عند أبى هلال شىء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

"وأنا من لا يحاجّك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

(١) ص ٤٧ (٢) ص ٤٧

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بي عنك غِرة الحداثة، وردتني اليك الحنكة، وباعدتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني اليك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدّد النعمة بآطراح الحقد، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت"[١] .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :

" أجدب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، واستحلسنا الحذر[٢]، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا بجرة أقوياء" فعفا عنه[٣] .

ومع اهتمام أبي هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة[٤] . وهنا يناقض رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعاني بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعاني بالأرواح . وفي رأيي أنه يجب أن يُفرَق بين المعنى والغرض، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت في الشعر، وعلى وحدة الفاصلة في النثر، مع أنه يجب التفكير في وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعاني الجزئية وحدات تتكوّن منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان[٥] .

وهناك أبواب في كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل، وان لم تكن في جملتها من مبتكرات أبي هلال . ففي باب الالتفات شواهد بديعة مسندة الى الأصمعي إذ قال : أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بَشامة؟ سُقِيَ البَشامُ

(١) ص ٤٩ (٢) استحلسنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويبسط في البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقـــوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لا زلت فى عَلَلٍ[١] وأيك ناضــــر[٢]

وفى باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شىء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك؟ وكلا ليس منك قليلُ[٣]

وفى تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من نثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك، فاستفزنى الفرح قبل رؤيته، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته، فما أدرى أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور، أم روض ممطور؟ وكلام منثور، أم وشى منشـــور ؟ ولم أدر ما أبصرت فى أثنائه : أأبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادى ظمآن، أم غوث سيق الى لهفان[٤]»

وقـــد يُلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا فى نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حَجَر فى قوله :

ولست بخابئٍ أبدا طعاما حذار غد، لكل غد طعامُ

لـــا تكرر فيه من لفظ غدٍ[٥] .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب فى كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير، وانما يكفى أن نقول إن كتابه يضع القارئ فى حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتابٌ جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) العلل ، بالتحريك ، الشرب بعد الشرب تباعا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٣١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الحاتمى

١ — أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من الشخصيات القوية التى غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت اليه من آثارهم صُبابات كافية تميط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذى ينظر حواليه فتتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ فى هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمى تشعره بأن من المخجل أن يُنسى مثل هذا الرجل فى عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكرى المجيد .

٢ — ألف أبو على الحاتمى عدة كتب فى اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، والموضحة فى مساوى المتنبي ، والهلباجة فى صناعة الشعر ، وسر الصناعة فى الشعر أيضا ، والحالى والعاطل فى الشعر كذلك ، وكتاب المجاز فى الشعر أيضا[1] . وهذا الإلماح فى الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه فى هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكى الحسرة فى أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق فى دلالته على ثقابة الذهن ، ومتانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية فى مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت فى " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمى لوحدة القصيد إذ يقول :

(١) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٢

" مَثَل القصيدة مَثَل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه ، وتعفى معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدّمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدَثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حَزْنه ، ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فأدّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يعتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه فى الشعر المستقيم ، نضا بتاره ، وأوقد بالبقاع ناره . فمن أحسن تخلص شاعر الى معتمَده قول النابغة الذبيانى :

فكفكفت عنى عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهلٌّ ودامعُ
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال هم دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدَثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنوا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزا عجبا ، فكيف بجاهل بدوى إنما يغترف من قليب قلبه ، ويستمدّ عفو هاجسه " (١) .

---

(١) ج ٣ ص ١٧ و ١٨

أليس فى هذه الفقرات دليل على أن الحاتمى كان بعيد الغور فى نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هـذه الى أدق ما وصل اليه النقاد فى العصر الحديث ؟ وأى تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ؟ يضـاف الى ذلك جرأته فى رمى الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنمـا عددنا ذلك جرأة لأن الرأى الغالب فى تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة فى الشعر ورمى من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمى لم يفته أن يقرر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قليب قلبه ويستمد عفو هاجسه فيأتى بالمعجز الذى يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ — ولكن هـذه البراعة التى يمثلها ما بقى للحاتمى من الشـذرات القليـلة لم ترتفع به كثيرا فى الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن خمول الحـاتمى يرجع الى انصراف الناس عنه لصَلَفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعـد غايات الزهو والخيلاء، وقد حدّثنا ياقوت أنه كان مبغّضا الى أهـل العلم فهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاج مرة[1] . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمى فى العُجب ودعواه التفرد بالحذق واللوذعية والذكاء . والحذلقة من أخطر ما يُرزأ به العلماء والأدباء وهى تجلب الى أصحابها من ألوان العـداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العـلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم فى أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بحذلقة الحاتمى وهو يقول عن نفسه فى مقدّمة كتاب وضعه فى سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سـنة تميل بى سـنة الصبا وتنقاد بى أريحية الشباب بهـذا العلم ، وكان كلفا به عَلِقا علاقة المغرم

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٠١ (٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٣

بأهله ، منقبا عن أسراره . ووُزِنتُ فى مجلسه تكرمة و إدناء وتسوية فى الرتبة — ولم تسفر خداى عن عذاريهما — بأبى على الفارسى وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، و بأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز فى علوم العربية تصرفا فى أنواعه ، وتوسعا فى معرفة قواعده وأوضاعه ، و بأبى الطيب اللغوى وكان كما قيل حتف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومُدحت فى مصنفاتهم ، وعُددت فى الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايماء عليه سخرة ، وأنا إذ ذاك غرير الغرارة ، تميد بى أسرار السرور ، ويسرى علىّ رخاء الاقبال ، وأختال فى ملاءة العز فى بُلَهْنِية من العيش وخفض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمى كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرفا فى الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يجحد فضله ، و يطمس محاسنه ، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كبرياء الحاتمى بكبرياء المتنبى ، وكانا متعاصرين يضمر كلاهما لصاحبه أقتم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان ، ولاسيما اذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب و باطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذى وقع فى خصومة الحاتمى للمتنبى : فقد كان الحاتمى صديقا أو تبعا للوزير المهلبى ، وكان المهلبى يبغض المتنبى بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمى وأنتظر قدوم المتنبى الى بغداد ليناظره ويؤلب العامة عليه ويزهدهم فى شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ — ترك الحاتمى رسالتين فى نقد المتنبى : أولاهما خلاصة ما جرى فى المجلس الذى تلاقيا فيه لأول مرة، وهى رسالة مغرضة بالطبع، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه. ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمى حين يذكر أنه ضايق المتنبى، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر، لأن كل معول يؤثر فى كل بناء، والناقد يستطيع كل شىء متى آستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب. والمتنبى كان رجلا واسع الشهرة، والمشاهير فى الغالب جبناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأمجد الأعمال، ويأتى على أرفع الأقدار. وبعض هذا الوهم صواب.

ولنترك الحاتمى يتحدّث قليلا لنرى خُيلاءه وقد قارع المتنبى :

« كان أبو الطيب المتنبى عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر، وأذال ذيول التيه، وصعّر خده، ونأى بجانبه، وكان لا يلق أحدا إلا نافضا مذرويه[1]، رافلا فى التيه فى برديه، يخيّل اليه أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره، وروض لم يرع نُوّاره سواه، فدل بذلك مُديدة ... حتى تخيل أنه القريع الذى لا يقارع، والنزيع الذى لا يجارى ولا ينازع، وأنه رب الغَلَب، ومالك القصب، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأطأ كثير منهم رأسه، وخفض جناحه، وطامن على التسليم له جأشه، تخيل أبو محمد المهلبى أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتتبعه بشىء من مطاعنه. وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوّه رجل فلا يكون فى مملكته أحد يماثله فى صناعته ويساويه فى منزلته، نهدت حينئذ متتبعا عواره، ومتعقبا آثاره، ومطفيا ناره، ومهتكا أستاره، ومقلما أظفاره، وناشرا لمطاويه، وممزقا جلباب مساويه[2] ... الخ» .

والرسالة تقع فى أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال، وهى تمثل طريقة الحاتمى فى الكتابة ومذهبه فى النقد، وفيها فقرات قوية، كقوله يجيب المتنبى وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الأليَة، بلا واحد، أو هو المذرى، ومن الرأس ناحيتاه، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل. وجاء ينفض مذرويه باغيا متهددا (قاموس).

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل.

فى تثاقل وفتور : "أنا بخير ، لولا ما جنيت على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى فى المسير الى مثلك"[١] ونقدات الحاتمى فى هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبى بالسرقات الشعرية وسوء التعبير فى طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين النـاقدين . وقد ختمت هـذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبى ومعز الدولة بهزيمة المتنبى ؛ وهى كذلك دليـل ما وصفنا به الحاتمى من الإسراف فى التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانيـة فهى أعظم أثر وصلنا عن الحاتمى ، وهى رسالة ردّ فيها حكم المتنبى الى أصولها من كلام أرسطاليس ، وقد وضع لهـا مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بهـا أنه فى نقـده عف نزيه إذ حدّثنا أنه يدافـع عن المتنبى "حين اتُّهـم بسرقة ما فى شعره من أغـراض فلسفية ومعان منطقية"[٢] لأن ذلك إن كان وقع من المتنبى "عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق فى درس العلوم ، وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقـد زاد على الفلاسـفة بالإيجاز والبلاغة"[٣] وهو فى الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحـاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبى باللطف مالم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسطاليس ثم يعقبها بشعر المتنبى ، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبى فضيحة شـنعاء . وفى الحق أن هـذا العمل كان غاية فى اللؤم من جانب الحاتمى ، لأن حِكم المتنبى تبدو فطرية لأول وهلة ، وذلك سر سحرها فى أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنـه من كلام أرسطاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبى :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمـة من الحكمة التى أُخذ عنهـا فى قول أرسطاليس "يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة"[٣] .

(١) ص ٥٠٦ (٢) الرسالة الحاتمية (ص ١٤٤ من مجموعة التحفة البهية) . (٣) ص ٢٤٦

وقول المتنبى :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشىء، ثم يفضح تنافره حين ينظر الى أصله فى قول أرسطاليس " روم نقل الطباع من ردئ الأطباع شديد الامتناع[١] " .

وقول المتنبى :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

أقل عمقا من قول أرسطاليس :

" من لم يردك لنفسه فهو النائى عنك و إن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت قريب منه و إن تباعدت عنه[٢] " .

وقول المتنبى :

لعل عتبك محمود عواقبهُ فربما صحت الأجسام بالعلل

أقل وضوحا من قول أرسطاليس :

"وقد يفسد العضو لصلاح أعضاء كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها[٢]"

وقول المتنبى :

وما التيه طبى فيهمو غير أننى بغيض الىّ الجاهل المتعاقل

أقل تعليلًا من قول أرسطاليس :

"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس[٣]" .

وقول المتنبى :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقرُ

منقول من قول أرسطاليس :

" من أفنى مدته فى جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم[٤]" .

(١) ص ١٤٥ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٤٨ (٤) ص ١٥٠

والرسالة الحاتمية تقع فى خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهى كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقى المتنبي من خصومه المسرفين.

٧ — ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمى أصاب فى كل ما رمى به المتنبي من سرقة معانى أرسطاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا فى المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة.

فقول المتنبي :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمـــر به الوحولُ

أروع بلا جدال من قول أرسطاليس :

"من استمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها"[١].

وقول المتنبي :

إنعم ولَذَّ فللأمور أواخرٌ أبدا كما كانت لهن أوائلُ

معنى عادى : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسطاليس :

"كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخرا"[٢].

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه

أفعل فى النفس من قول أرسطاليس :

"كرهُ ما لا بد من كونه عجزٌ فى صحة العقل"[٣].

٨ — ولنا أن نأخذ على الحاتمى وقوفه عند أرسطاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن ارسطاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى استطاع الحاتمى أن يرجع اليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويُشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسطاليس : "ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم".

(١) ص ١٤٥ (٢) ص ١٥٥ (٣) ص ١٥٨

ثم أداره فى نفسه وما زال به حتى أغرقه فى لجة من الشعر حين قال :

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل يروق دفينا جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمى أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبى، وقد يكون السبب فى ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله فى أول المراجعة "قال المتنبى رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمى كتب رسالته الثانيـة وقد اكتهل وغاب عليـه الوقار وفارقه النزق الذى ساد فى رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله فى مقدمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فان أحق ما احتكمت اليه نفوس أولى النظر، وانقادت اليه آراء أهل الفكر ، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العـدل ، فانه سنخ[1] العقل، وحليف النهى، وصنو الفهم، وعدو الهوى " .

١٠ — هذا وكان الحاتمى متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذى يقول :

لى حبيب لو قيـل لى ما تمنى ما تعديتـه ولو بالمنـون
أشتهى أن أحل فى كل جسم فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلتـه قصرا كعارض البرق فى أفق الدجى برقا
قـد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منـه فجره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليـل أقمنا فيـه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكر
ونجـم الثريا فى السماء كأنه عـلى حلة زرقاء جيب مدنر

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فليرجع اليها القارئ هناك[2] .

(١) السنخ، بالكسر، الأصل .
(٢) ج ٣ ص ١٢

١١ – أبو عبد الله المرزبانى

١ – المرزبانى هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان – كما ذكر ابن النديم[١] – وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدّر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد[٢] .

ولد فى بغداد سنة ٢٩٧ وتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزبانى إلا نُتف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفضل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته فى ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر و زجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تململه حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب «كيف حال من هو بين قارورتين؟!» يعنى قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ – وكان فى حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف فى أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة فى تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية فى الأقطار الاسلامية . وقد أُخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح فى رواية الحديث .

وكان فى جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدّمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب فى تحامل بعض المغرضين عليه كأبى حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢.

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعوه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلجام[١]. ولو بقيت كتب المرزبانى كلها أوجلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل. غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون. وابن النديم حجة فى تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين. وقد أثبت فى هذا الكتاب مختار أشعارهم وبيّن أنسابهم وأزمانهم. وأن له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شُهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال. ويشتمل الفصل الثانى على ما رُوى من نعوت الشعراء وعيوبهم فى أجسامهم وصورهم كالسودان، والعور، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثر فى الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضوا. ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء فى دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجرهم. ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر فى الجاهلية تكبرا وفى الاسلام تدينا، ومن ترك المديح ترفعا، والهجاء تكرما، والغزل تعففا، ومن أنفذ شعره فى معنى واحد كالسّيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما. وله كتاب آخر اسمه "الرياض" ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وانتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين.

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى ففى مقدور القارئ أن يرجع اليه فى الفهرست[٢]؛ ولكن يهمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية.

---

(١) ياقوت ج ٣ ص ١٠٣ (٢) أنظر ص ١٩٠ — ١٩٣

فقد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيبا قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهليين كتابا، وللمحدثين كتابا، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة فى أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء ومادخل فى جملتها من أوصاف الربيع والخريف. وكتبه عن الزهد والزهاد والمجابة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذى ساق فيه طرفا مما قيل فى الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابه فى نسخ العهود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتابا فى أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتا لكل من تحدّث عنهم من الشعراء. فمن الذى يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرنا وكان المرزبانى لم يجتز منه غير خمسة قرون؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتابا سماه "تلقيح العقول" فى أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدبين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك[1].

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزبانى — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذى نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدّثنا المؤلف فى مقدّمته أنه اهتم بذكر ما أُنكر على الشعراء فى أشعارهم من العيوب التى سبيل أهل عصره ومَن بعدهم أن يجتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التى نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عِيب على الشعراء قديمهم ومحدثيهم فى أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم فى أنفسهم وأجسامهم

(١) الفهرست ص ١٩١

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معايبهم التى استقصاها فى كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معانى الشعر التى أتى بكثير منها فى كتابه الذى تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائليه ومنشديه والبيان عن منحوله ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض[1].

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدّة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدّم للقارئ معارض مختلفة مما أُخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبته لا نجده اليوم فى غير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك. فأنت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها فى شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قال النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلا لما استطعت أن تجدها منظمة على نحو ما تجدها فى هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيرا ما تظهر شخصيته فيُعرَف رأيه ومذهبه فى النقد كقوله مثلا فى نقد قول الطائى:

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالنافقاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها: لأنها لا تجاوَر بأمثالها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة فى كلامهم[2]".

ومعنى هذا أن الغريب الوحشى قد يحسن استعماله اذا اطّرد فى كلام متأبد غريب. أما فى الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى. والتفاهم عند المرزبانى والجاحظ هو الأساس فى اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألفون.

(١) راجع مقدّمة الموشح. (٢) الموشح ص ٣١١

٦ — ولا يخلو المرزبانى — على فضله — من تحامل : فقد رأيته يغض من قيمة مختارات أبى تمام إذ يقول :

"وللطائى سرقات كثيرة أحسن فى بعضها وأخطأ فى بعضها . ولما نظرت فى الكتاب الذى ألفه فى اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء ، وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع اليها فى وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتغبى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر فى سرقاته حتى يزيد فى إضاءة المعنى ، أو يأتى بأجزل من الكلام الأوّل ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدّمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ماقصده نظر مستغن عنه لافقير اليه"(١)

ففى هذه الفقرة تجنّ شديد على أبى تمام وإزراء بإحسانه فى تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذى مر ببال المرزبانى مر ببال ناقد شريف القصد فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الاشعار التى لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التى يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التى سرق منها ما استُجيد من شعره .

ولا أدرى كيف يصح هذا من المرزبانى إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبى تمام . وقد كان أبو تمام ابتُلى فى حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمى به فى هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخملت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقا وترمى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح فى خلقها إثما ولاجناية ، حتى صح للمرزبانى على نزاهته أن يتهمه بسوءالنية فى تأليف المختارات مع أن فى الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلا فى مجموعة أدبية وهما باب المراثى وباب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزبانى أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحيانا يضيف اليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

(١) ص ٣١٢

"دخلت على أبى تمام الطائى وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفى الأبيات بيت واحد ليس كسائرها . فعلم أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال:

أتراك أعلم بهذا منى؟ إنما مَثَل هذا مَثَل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدّم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره و يرى مكانه ولا يشتهى أن يموت . ولهذه العلة ما وقع مثل هذا فى أشعار الناس[1] " .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . " قال مثقال الشاعر : قلت لأبى تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الردىء! فقال : مَثَل هذا مَثَل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت " وفى التعقيب على هاتين الفقرتين يكتفى المرزبانى بأن يقول . " وهذه حجة ضعيفة جدا[1] " .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشىء فى النقد والمقابلة كما فعل فى نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

فقد بين أن أفضل منه قول الطِّرِمّاح بن حكيم :

بلى إن للعينين فى الصبح راحة لطرحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال " فأحسن فى قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدّة كلفهم لقلة المساعد وفقد المجيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامى النظر الذى لا بدّ أن يؤدّى الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه[2] " .

وللمرزبانى ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارىء المتصفح ويستجيدها المتأمل كقوله فى التعقيب على قول أبى العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

(١) ص ٣٢١ (٢) ص ٣٢ و ٣٣

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزبانى أن العبارة غير مرضية : لأنا لم نر أحدا أكل شهدا بسم . وأجود من هذا البيت لفظا وأصح معنى قول ابن الرومى :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث واشٍ يكيدها
مع الواصل الواشى وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحلٌ يذودها[1]

وتلك ملاحظه دقيقة وهى تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرنى عن قولك :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدرُ

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا اذا لم يكن معها قمر[2] .

٨ — وقد اشار المرزبانى فى غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدث عما أخذ على امرئ القيس فى قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا فى البيت الثانى . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقى البيت . على أن فى هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبيانى فى اعتذاره الى النعمان :

(١) ص ٢٦١ (٢) ص ٣٠٧

ولست بمستبق أخا لا تلمـــه   على شعث، أى الرجال المهذبُ

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو آبتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لاعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوفٍ لا يحتاج الى سواه (١).

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبـه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، وإن ظن ناس غير ذلك، فان الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشدّ الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك أن يقدر الشاعر لنفســه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظـام وانسجام الى أن يتمها بتمـام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقا الشعرية ننقل له قطعة لابى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما   والله لو كلفت منــه كما

كلفت من حب رخيم لمـا   لمت على الحب فـذرنى وما

ألقى فانى لست أدرى بمـا   بليت إلا أنــنى بيــنما

أنا بباب القصر فى بعض ما   أطـوف فى قصرهم إذ رمى

قلــبى غزال بسهـام فمـا   أخطا بهـا قلبى، ولكنما

سهـماه عينان له كلمـا   أراد قتـــلى بهــما ســلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشـعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شـديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تحكم فى قدرها الأذواق .

(١) أنظر ص ٣٣ و ٢٦١

obeikandi.com

٩ — وفى الموشح عبارات نقـديه تكاد تبلغ الغـاية فى دقة الوصف وليتأمل القارئ ما نقله المؤلف فى تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوى :

" أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبـه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط[1] ".

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد فى استهجانه قول بعضهم فى النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق بعـود ثمـام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن فى الإزراء بمثـل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق فى كثير من الأحيان . ولكنها تظـل مع ذلك مقبولة يهش لهـا الذوق لدلالتها على ما وُهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لـــولا مخاطبـتى إياك لم ترنى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيب قول بعض المولّدين :

عادنى ممرضى فـــلم ير منّى فوق فرش السقام شيئا يراهُ
قال لى أين أنت قلت التمسنى فبكى حين لم تجـــدنى يداهُ

ولسنا نستطيب هذا لصحة معناه وإنما نستطيبه للصورة التى قدّمها الشاعر فى وصف آثار النحول .

١٠ — والمرزبانى يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر فى ثنايا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وان اجتهد فى إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصبغة البحث الصرف فقد حدّثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

(١) ص ٢٤٣

سخافة اللفظ وهلهلة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعاظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحهم أوّلا مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

"ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادى فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انسترعنه وحسبنا الله ونعم الوكيل"[1] .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فمن أمثال هذه الهفوات تنكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! فلعل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، واست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فان النفس لاتجانب الجادّة السوية إلا وهى ثائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يجىء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انسترعنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فان ذلك

(١) راجع ص ٣٣٦

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التى تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزبانى طائفة من الطُّرف والفكاهات كانت تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولكنا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزبانى فى إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .

والموشح مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد[1] .

---

(١) من أطرف ما نقل المرزبانى من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء فى ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعى يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى الى أشعارهم : قال : فأخذ صحفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ! »